

اللَّفَاظُ الْحَضَارَةِ بَيْنَ الْعَامِيِّ وَالْفَصِيحِ

د. أحمد شقيق الخطيب

رئيس دائرة المعاجم/بيروت - مكتبة لبنان

حضارى — يحمل في طياته قليلاً أو كثيراً من الحضارة تبعاً لخبرة السامع وثقافته وبيعته. لفظة «خبز» مثلاً على بساطتها وإن عنث «ما يُصنّع من الدقيق المعجون المتضيّج بالنار» لجميع الناس، فإنها تحمل الكثير الكثير في ثابتها لمختلف فناتهم وبيعتهم.

فهذا الدقيق قد يكون من الشيلم أو الشعير أو الدخن أو أنواع الدرة المختلفة أو القمح، أو أي منها مع القمح، ونار إنصажه قد تكون موقداً وقوده القش أو الحطب أو البترول أو الغاز أو الكهرباء أو الموجات الصغرية (الميكروويف).

وقد يكون «خبز» صنفاً من عشرات أنواعه — من خبز الصاج الرقيق أو البلدي السميك أو الإفرنجي المقوّل، وقد يكون صنعاً في البيت أو في مخبز صغير أو في مصنع ضخم مجهزاً بالمعدات والآلات فلا تمسه يد إنسان !

وقد يكون معالجاً بالخمائير أو بدونها، معززاً بالفيتامينات أو بجوايد اللبن، أو يكون من النوع الخاص باللحمة أو مرض السكري. ولعل اللفظة تجيء في خاطر سامعه الأضطرابات التارikhية القديمة والحديثة التي نجمت بسبب «خبز» أو تعيد إلى ذهن آخر مصير رفيق يوسف الصديق في السجن والآية الكريمة *هُنَّ أَرَانِي أَحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي حُبْزَاكُهُ*.

ومثل هذا يمكن أن يقال في لفظة «قماش» منذ ليف القنب حتى ألياف عصارات الرياحون، وفي «سلاح» منذ بلطة الحجر المشدّب حتى صواريخ

في معالجة موضوع «اللّفاظ الحضارة بين الفصيح والعامي» يفترض أنني أعرّف الفاظي بادئ ذي بدء.

الحضارة — يقول المعجم الوسيط — هي مظاهر الرقي العلمي والفكري والأدبي والاجتماعي (وأضيف إليها التقاني) في الحضر. ولفظة «الحضر» يحدّدها المعجم نفسه بأنها تشمل المدن والقرى والريف.

يعني : الحضارة تشمل كلّ ما حولنا : إن كان فنجان قهوة من بكرج عادي أو كهربائي، أو كأس ماء بارد من جرة أو ثلاثة، أو كان تصفح جريدة صباحاً، أو مطالعة كتاب في جلسة هادئة مساءً على نور قنديل كاز أو غاز أو كهرباء، أو كان الاستطباب بوصفة أعشابية أو مضاد حيوي، أو كان ثوباً مطرزاً في الضيعة أو مقصباً في بيوتات باريس، أو كان سفراً في قافلة أو قطار أو سيارة أو طائرة، أو كان متابعة مباراة في كرة القدم على الراديو، أو مراقبة عودة المكوك الفضائي بقمر استطلاعي ضئيل تائه على التلفزيون، أو... أو إلى ما هنالك — مما كان أو سيكون !

يعني : حضارتنا هي كلّ ما حولنا، كل اختباراتنا، كل وسائل العيش والنقل والاتصالات عندنا، كل مصانعنا و مصنوعاتنا ومختبراتنا، كل مطابعنا ومطبوعاتنا وإذاعاتنا، كل ما تقع عليه أعيننا أو يحول في أفكارنا.

ومن هذا المنطلق، فإن كلّ لفظ هو لفظ

الفضائية.

وهكذا قُل في آلاف التعبيرات التي أكتسبتها الحضارة معاني ومفاهيم محددة، أو إنها صيغت فعلاً لتحمل مفاهيم معينة لم تكن من قبل مألوفة مثل :

حرب باردة
غطاء جوي

غرفة عمليات (بالمعنى الطبيعي أو العسكري)
حساب جاري
سلة عملاً... الخ

وغيري عن القول أنه كلما تقدم الإنسان في سُلم الحضارة ازدادت الألفاظ والتعابير والأفكار الازمة للتفاعل معها والمرتبطة بها — كون اللغة مرأة تعكس أحوال الناس وأوضاعهم وواقعهم واستجابتهم لمتطلبات الحضارة المتقدمة ومستلزماتها.

اللغة العربية وألفاظ الحضارة

اللغة العربية عُرِفت منذ دونت لغة فدَّة بين اللغات غنيّة وفصاحة ومقدرة على التعبير ووفاء بحاجاتِ القوم في نطاق بيئتهم الطبيعية وتعاملهم فيما بينهم محلياً ومع البيئات الأخرى من حولهم. وقد أهلها ذلك لارتفاع قيمة البيان الإنساني في القرآن الكريم.

وما جاءت العربية الألفاظ الحضارية كمشكلة، على ما نعلم، إلا في تجربتين : التجربة الأولى كانت عندما دخل العرب التاريخ تحت راية الإسلام. وكانت الأمم التي شملتها إمبراطوريتهم في الشام والعراق ومصر وفارس قد قطعت شوطاً بعيداً في مضمار الحضارة. فأقبل العرب على ثراثِ وعلوم تلك الأمم فنقلوها واستغلوا بها وزادوا فيها. وشاهد استيعاب اللغة العربية

عصر النجوم، وفي «عجلة» منذ قطع أول إنسان جذع شجرة ضخمة فسَرَ عليه عربة حتى حركت دواليب سليليه مكبات الثورة الصناعية وأطراف العربات القمرية. ومثله يقال أيضاً في لفظة «اتفاقية»⁽¹⁾ منذ ثار أول حُرٌّ على مستعبديه حتى اتفاقية الشعب العربي في الأرض المحتلة على قاهرية، وفي آلاف الألفاظ العربية الأخرى.

ولذلك إذا ما اخترت لفظة من المستجدات التقنية كلفظة «راديو» مثلاً فإن مفهومها الحضاري قد يختلف بالقدر نفسه. فهي لبعض الناس جهاز يأتهم بشرارات الأخبار وما يطلب المستمعون — بينما يرى فيها آخرون حلقة بين التلفون والرادار، جهازاً معتقداً تتلقى مقوماته ومضموناته وصماماته ومرشحاته وميكروفوناته التموجات الصوتية المبعثة من محطة البث محملاً على الأمواج الكهرومغناطيسية عبر الأثير، فتحللها وترسّحها وتقوّمها وتضخمها حسب الطلب أنغاماً شحيحة أو كلاماً بينما سائغاً للسامعين.

وقد تُجيِّل لفظة إيتها في خاطر السامع جهود العلماء والخبراء الذين أدّت إبداعاتهم إلى هذا الإنجاز الرائع — من فارادي ومكسوبل حتى هرتز وفليمونغ وماركوني، أو تُعيد إلى ذهنك الخدمات الجلجلية التي يُؤديها الراديو لبني البشر في البر والبحر والجو. أليس هُم يقولون : الألفاظ تُورّخ الحضارة؟ ثم إن الألفاظ نفسها قد تتفاعل مع التعبير فتكسبها معاني أو تبعُّها مفاهيم حضارية مختلفة : فمفهوم حَطَم في «حطَم الرَّجُل السِّيَاج»، غيره في «حطَم الإنسان الذرة».

وبتعبير «شروق الشمس» مفهوم فلكي شعرت به جمالي الفناء، لكن التعبير «شروق الأرض» مفهوم حضاري طازج لم يختبره بعد إلا نزلاء المركبات

(1) هذه اللفظة بمنطقها العربي أصبحت من المستجدات اللغوية في صحف العالم كافة وفي سائر وسائل إعلامه. ويدرجها سجل لونقمان للألفاظ المستجدة في اللغة الانكليزية الصادر عام 1989 ضمن ألفاظه في مادة intifada.

القرآن الكريم نفسها التي تحوي كلماتٍ من جميع اللهجات العربية ومن الإغريقية والفارسية والإثيوبية كما هو معلوم.

أضيف إلى ذلك أن تلك المُجاَهَةَ ظلت تدريجيةً طبيعيةً، استغرقت عملية النقل والتطور فيها قُرابةً ثلاثة قرون.

أما التجربة الثانية الحالية فقد كانت المُجاَهَةَ فيها باللغة الحِجَّةَ — لا فقط بفعل الفارق الحضاري الانقلابي المُذَهِل على كلّ المستويات وفي شتى المجالات، ولا بفِيَضِ المصطلحات والأفكار والمُسَمَّيات التي رافقته، بل أيضاً بالتسارع الهائل في سِيلِ المُخترعات والمُكْتَشَفات والمُسَمَّيات والمُصطلحات التي ظلت تتدفق بتسارع يُربِّك حتى أهل الصناعة وتقنيتها وعلماءها باللغة التي تُحَلِّق بها تلك المُسَمَّيات. وهي مُسَمَّيات، إنْ كان يُمْكِن تجاهُلُ الكثير منها أو تركه لأهل الاختصاص، فإنَّ الكثير منها مُتَشَابِلٌ مُتَحاَبِلٌ مع شؤون الناس الحياتية والثقافية والعلمية في مختلف مجالاتها ومستوياتها. والذين عانوا تعليم العلوم مثلـي في هذا الجيل لحظوا ولا شكَّ أنَّ الكثير الكثير من المُسَمَّيات الأساسية في الكيمياء والفيزياء وعلم الأحياء التي يُعْلَمُون، لم تُكُنْ معروفة أيام درسها هُنْ في الجامعات، وأنها اليوم أكثر بكثير مما هو مُدوَّن في الكُتب التي يُدرِّسون.

وكوني لا أملك إحصائيات دقيقة حول حجم هذه المُجاَهَةَ المصطلحية وتناميها وما يدخل المُعجم اللُّغوي منها في مرجع عربي أجاً إلى إحصائيات لغة هي مصدرُ الكثير من مستور داتنا الحضارية — لا في مجال التقانيات والمنتوجات فقط بل في مجالات الفكر والثقافة أيضاً.

المعجم الأشهر في اللغة الانكليزية اليوم هو معجم وبستر الدولي الثالث الذي صدر عام 1961 وبه على ذمة مُحررة 450 ألف مدخل منها 200 ألف ذات طابع علمي أو تقني لا أدرى إن كان قد

للحضارات الفارسية واليونانية والهنديَّة وهضمها وتجاذُرها في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والفكريَّة والعلميَّة، إنَّها سُرُّ عانَ ما أصبحت لغة العلم والحضارة فيسائر أرجاء العالم المعروفة حينئذ — عندها يُترجمُ ومنها يُفَتَّسُ. ثمَّ رانَ على أمَّةِ العرب — وبالتالي على اللغة العربيَّة — سباتُ القرون الخمسة.

وكانت التجربة الثانية — التي لا نزال في مُعْتَرِّكها — حين جابَت العربيَّةَ فيضًا هائلاً من الأفكار والمُسَمَّيات التي رافقت افتتاحنا على الغرب، أو على الأصحِّ، افتتاحَ الغرب علينا — فجاءتنا بِقَانَةَ الحربِ والفنون الهندسيَّة والطبيَّة بـدءًا بحملة نابليون على مصر وبعثاتِ محمد علي إلى مختلف الأقطار الأوروبيَّة. وامتداداً باليَعَاثَات التشيرية الأمريكيةُ والفرنسية في بعض سوريا ولبنان. واحتدمت المُجاَهَةُ خلال القرن العشرين الذي تمَّيز، كما هو معروف، بازدياد أسبابِ الحضارة ازدياداً مُذَهلاً في مختلف المجالات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والعلميَّة وشتى المهارات التقنية الحياتية المتعلقة بالطعام والسكنِ والصحةِ والأمنِ والحرمة والبقاء. لقد جهدت اللغة العربيَّة خلال هذه التجربة، وحُورِبَتْ وتعثرتْ، لكنَّها عادت تُتَّبعَشُ. وهي اليوم، بفضل جُهود الرُّوادِ الخالدين والعلميين المُخلصين والمُجتمعين، في سَبِيلِها إلى النجاح والإبداع إن شاء الله.

والذين يتهمون العربيَّةَ بالقصير اليوم لأنَّها لم تستجب للتجربة الحالَّةَ كما استجابت للتجربة الأولى لعلَّهم يتجاهلون بضعة عواملٍ، منها —

أولاً : في التجربة الأولى لم تُجاهِي اللغة العربيَّة فارقاً حضارياً حاداً كما يتوهُمُ الكثيرون. فالعربُ في الجاهلية، وإن كانوا جاهلين دينياً، لم يكونوا جاهلين حضاريًّا. فلم تكن حضارة الروم والفرس والهند مُفاجئةً للعرب — غساسنةً ومناذرةً شمالاً، أو يمانينَ وخليجينَ جنوباً. ولا يُرهانَ أنْصَعَ على ذلك من لغة

مُقابلاتٍ تُرجمُ مثيلاتِ كِيلوس وَكِيموس وَنُقُرس وَقُولنج — وَلَا الْكِنْدِي عَاجِزٌ عن توليدِ الفاظِ تُقابلُ مثيلاتِ أَنُولوطيقاً وَرِيُطُورِيقَا وَبُولِيُطِيقَا، وَهُوَ الَّذِي أَجَادَ شِرْحَهَا فِي رسائلِهِ، وَلَا الْبِيرُونِي وَالْخَوارِزمِي وَابْنُ الْهَيْثَم قَاصِرُونَ عَنِ إِسْتِبَاطِ بَدِيلَاتِ لِأَمْثَالِ زِيج وَجِيُومَطْرِي وَأَرِيثَاطِيقَا وَأَسْتِروُنُومِيا.

وَفِي يَقِينِي أَنَّهُمْ إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ رَغْبَةً فِي الدِّقَّةِ وَمُرَاعَاةً لِلْحَفَاظِ عَلَى الصَّلَةِ الْعَلْمِيَّةِ مَعَ سَائِرِ اللُّغَاتِ. وَهُمْ كَانُوا إِذَا مَا رَأَوُا أَنَّ مُصْطَلِحًا لَا يُؤْدِي مَعْنَاهُ كَامِلًا عَدَّلُوا عَنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَدْقُ وَأَضْبِطُ وَأَذْوَقُ، وَلَمْ يُبَالُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمُصْطَلِحُ عَرَبِيًّا أَصِيلًا أَوْ مُسْتَعْرِبًا دَخِيلًا.

هَذَا وَلَمْ يَكُنْ كِتَابُ الْعَرَبِيَّةِ آنَذَاكَ فِي إِنْجَازِهِمُ الرَّائِعَةِ يَتَوَرَّعُونَ عَنِ اسْتِخْدَامِ مَا كَانَ يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَامَةِ مُوَلِّدًا أَوْ دَخِيلًا مَمَّا يَجِدُونَ فِيهِ وُضُوحاً وَبَيَانًا وَحِيَوَيَّةً وَدَقَّةً أَدَاءً. وَشَوَاهِدُ ذَلِكَ تَقْرَأُهَا فِي بُخَلَاءِ الْجَاحِظِ وَحَيْوَانِهِ، كَمَا فِي أَغْنَانِ أَيِّ الْفَرْجِ الْأَصْبَهَانِيِّ وَعِقْدِ ابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ وَوَفَيَاتِ ابْنِ خَلْكَانَ وَنَشَارِ التَّنْوُخِيِّ وَغَيْرِهَا.

فِي الْتَّجْرِبَةِ الثَّانِيَّةِ، وَالْعَرَبِيَّةُ لَمَّا تَسْتَرَّدَ صَحْوَتَهَا وَلَا مُرْوَنَتَهَا بَعْدَ غَفْوَةِ وَجُمُودِ الْقُرُونِ الْخَمْسَةِ، بَدَأَتْ حَرَكَةُ نَقْلِ الْعِلُومِ عَلَى غِرَارِ مَا فَعَلَهُ النَّسَلُ — بِالْتَّرْجِمَةِ حِينَا، وَإِحْيَاءِ الْمُوَلَّدَاتِ وَالتَّوْسُعِ فِي تَحْلِيقِ مَثِيلَاتِهَا بِالْقِيَاسِ حِينَا، وَالاستِعَانَةِ بِالْفاظِ أَهْلِ الصَّنْعَةِ حِينَا وَبِاللَّجوءِ إِلَى التَّعْرِيبِ حِينَا — فِي نِطَاقِ مِنْهَجِيَّةِ تَبْلُورِتْ فِي بِيَانِ مُحَمَّدِ حَفْنِي نَاصِيفِ يَوْمَ افْتَحَ نَادِي دَارِ الْعِلُومِ فِي مَطْلَعِهِ هَذَا الْقَرْنِ. وَقَدْ

(2) محمد بن موسى (ت. 850) الرياضي والفلكي والجغرافي المشهور. ومحمد بن أحمد (ت. 977) صاحب «مفاتيح العلوم» أقدم دائرة معارف في مصطلحات العلوم.

(3) ثُورَدْ مجلَّةُ مجمعِ اللغةِ العربيَّةِ الأُرْدُنِي ص 11، جزء 23 - 24، قولًا للبيروني بما نصَّهُ : «إنَّ الْكَلَامَ الْفَصِيحَ لَا مَكَانَ لَهُ فِي الْكِتَابِ الْعَلْمِيِّ». وَالَّذِي يَقْصِدُهُ أَبُو الْرَّيْحَانِ هُنَّ بِالظَّبْعِ هُنَّ الْفَصَاحَةُ الْبَلَاغِيَّةُ بِمَفْهُومِ ابْنِ الْأَتِيرِ وَعَبْدِ الْفَادِ الْجُرْجَانِيِّ وَابْنِ سِنَانِ الْخَفَاجِيِّ، وَلَيْسَ بِمَعْنَى الْوَضْوَحِ وَدَقَّةِ الدَّلَالَةِ الَّذِي نَقْصَدُهُ هُنَّ.

دَخَلَ مَعَاجِمَنَا نِصْفُهَا. وَفِي الْمُلْحَقاتِ الَّتِي ظَلَّ يُصْدِرُهَا مُحرَّرُو هَذَا الْمَعْجَمِ كُلَّ خَمْسِ سَنَواتِ، وَتَابَعُهُمْ فِيهَا مُحرَّرُو دَارِ بَارِنَهَارْتِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَعْجَمِهِ الْمُسْتَجَدَاتِ فِي الْأَنْكِلِيزِيَّةِ، بِلَغَةِ مُعَدَّلِ هَذِهِ الْإِضَافَاتِ خَمْسَةَ آلَافِ مَادَةٍ فِي كُلِّ مُلْحَقٍ — عِلْمًا أَنَّ هَذِهِ الْمُسْتَجَدَاتِ لَا تَشْمَلُ الْمُصْطَلِحَاتِ الْفِيَزِيَّيَّةِ أَوِ الْهَنْدِسِيَّةِ أَوِ الْإِلْكْتَرُونِيَّةِ الْعَالِيَّةِ الْأَخْتَصَاصِ وَلَا أَسْمَاءِ الْمَرْكَبَاتِ الْكِيمِيَّوِيَّةِ الْمُعَقَّدَةِ وَلَا أَسْمَاءِ النَّبَاتَاتِ وَالْحَيْوَانَاتِ الَّتِي لَا تَهُمُّ غَيْرَ الْبَيُولُوْجِيَّينَ وَكُلُّهُمْ يَكَادُ يَفْوَقُ الْحَصْرَ، وَلَا الْرَّطَانَاتِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا التَّقَانِيُّونَ وَالْمَحْبَرِيُّونَ فِيمَا يَئِسُّهُمْ، بَلْ هِيَ خَمْسَةَ آلَافِ لَفْظَةٍ حَضَارِيَّةٍ ثَابِتَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ، تَهُمُّ عَامَةَ الْمُتَقَدِّمِينَ.

ثَانِيَا : الَّذِي نَعْرِفُهُ أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْمُتَرَجِّمِينَ الْمُسْتَعْرِبِينَ وَالْعَرَبَ الَّذِينَ نَقْلُوا «الْتَّكْنُولُوْجِيَّةِ» فِي الْتَّجْرِبَةِ الْأُولَى لَمْ يَعْتَرِضُ حَرْكَتَهُمْ أَحَدٌ فِي التَّوْلِيدِ وَالْتَّعْرِيبِ. فَهُمْ عَلَى غَزَارَةِ مَادَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمُرْوَنَتِهَا وَصَيْغَهَا وَمَزَايَاها الْوَضْعِيَّةِ تَحْتَاً وَاشْتِقَاقاً وَمَجَازَاً، كَانُوا إِذَا أَعْوَزُهُمُ السُّبْلَ يَنْقُلُونَ الْفَظْلَ الإِغْرِيْقِيَّ أَوِ الْهَنْدِيَّ أَوِ الْفَارَسِيِّ بِلَفْظِهِ — تَشَهُّدُ بِذَلِكَ الْأَعْمَالِ الْخَالِدَةِ لَابْنِ سِنَانِ وَالْكِنْدِيِّ وَالرَّازِيِّ وَابْنِ الْهَيْثَمِ وَالْفَارَابِيِّ وَالْخَوارِزمِيِّينَ⁽²⁾ وَالْبَتَانِيِّ وَالْبَيْرُونِيِّ وَغَيْرِهِمْ. وَلِسَانُهُمْ يَقُولُ «أَيِّ الْفِطْرَ فَصِيحٌ إِذَا دَخَلَ لِغَةَ الْعِلْمِ»⁽³⁾.

وَلَئِنْ كَانَ الْمُتَرَجِّمُونَ الْأَوَّلُونَ وَجْلَهُمْ مِنَ الْأَعْاجِمِ قَدْ عَرَبُوا عَجْزاً، كَمَا يُقَالُ، فَإِنِّي لَا أَرِيدُ أَنْ أَعْتَدَ أَنَّ عَبْرِيَّةَ ابْنِ سِنَانَ كَانَتْ تَعِزِّزُ عَنِ تَحْلِيقِ

المُقرِّم	واليد
المُؤْسِن	والبروم
لِلميثان	واقتراح لفظ الأجل
لِلإيثان	والطاسيل
لِلپروپان	والشاعيل
بِالجَلِيسِيَّةِ	واستعاض عن الغليسرين
بِالرَّبَّ	والغلو كوز
بِالصاقور	والطرطير
وفي خطى أستاذنا الكبير، الذي درسنا البلاغة وأدب العربية في بعض مؤلفاته، سار زميل كبير لنا أطال الله بقاءه — وهو من فطاحل العربية دون منازع — فقال في	اللَّثَانُومُ الباريسي وفي عصر المُؤْسِن (الجُيولوجي) حقبة الرَّاعية «العصر الحديث الوسيط».
وليس بعيداً عن هذه الحركة اليوم القائلون في التلفزيون : المشواف أو المرناة	الجماز في الترام
: الكاشوف	والميرواز في البارومتر
وفي الجيولوجية : علم الملك.	والرَّقين في الريال
كما قيل في الأمس القريب	وبالطبع، لم تكن العاميات، حتى مصنطلحات
أهل الصنعة منها، أمثال :	أهل الصنعة منها، أمثال :
وخردة	برغبي وجملون
وشعلة	وذبس وذرفة
وورشة.	وصاج وصوبة

لاقت تلك المنهجية تأييداً عارماً مذ آيدتها ووسعتها وقعدتها مجتمع اللغة العربية بالقاهرة الذي تأسس بعد ربع قرن من إلقاء ذلك البيان.

لكن فريقاً من الغيارى على صفاء العربية من المعرّبات والعاميات، بمحافر القدسية التي تسبّبها كلنا عليها دينياً أو بالحماسة العاطفية التي لا نشاطرهم إياها دوماً، راحوا ينادون لا بفرض العامي والمعرّب فقط بل أيضاً بفرض المولدات. وهو أمر تعود جذوره إلى إنجام مدعوني المعاجم حتى الضخمة منها، كلسان العرب والقاموس المحيط، عن تدوين ما يتلقّظ به عامة القوم ولا حتى ما استخدمه المولدون الفصحاء منهم.

لقد أصرّ الصفاويون على التقيد بترجمة المسميات ووضع المصطلحات بالألفاظ عربية التجار بدعوى أنّ في لغتنا لكلّ شيء مُقاولاً — فهي بكلمات محمد عزة دروزة وكأنه ينشر أبيات⁽⁴⁾ شاعرنا الكبير حافظ إبراهيم، «المحيط الشامل كلّ مُتعجّلات الحضارة — ما ظهر منها وما سيظهر». فما على الباحثين إلا الغوص في هذا المحيط لاستخراج ذرّة⁽⁵⁾. حتى إنّ أحد حاملي لواء هذه الحركة تحدى المعرّبين أسماء الكيماويات مُستبدلاً بأسماء المعرّبات منها أسماء عربية الحسب والتّسب — فاستبدل بالأكسجين لفظ المصدىء المُخصّب وبالنتروجين وبالهيدروجين وقال في الصوديوم وفي المغنيسيوم وفي الغرافيت وسمى الكلور

(4) هي الأبيات المشهورة :
وسيئت كتاب الله لفظاً وغاية فكيف أضيئ اليوم عن وصف الله وتبسيق أسماء لمحترعات أنا البحر في أعماقه الـرُّكامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاني؟

(5) يُعزى مثل هذا القول أيضاً إلى الشيخ حمزة فتح الله.

العربية وإهمال تدريسيها والتركيز على اللغة التركية. ولم تخلص العربية من كابوس التريلك إلا في أواخر الربع الأول من القرن العشرين.

ولم يكن المحتلون والمُستعمرون التوالي أرحم من سابقيهم في هذا المجال منذ بدأت حركة النهضة تُحبو وتشطّط. فقد تدخلوا في مسيرة نهضة اللغة العربية التي كانت قد أخذت تستوعبُ أسباب الحضارة الحديثة ومُتطلباتها بنجاح في القاهرة وبيروت، فعطّلوا المسيرة بفرض اللغة الأجنبية كلغة تدرّيس.

وكانت جهود مدرسة الطب في القاهرة قد أخذت تثمر غنىًّا للغة العربية بآلاف المصطلحات على مدى ستين عاماً⁽⁶⁾. ونجح مدرسوها بهمة ناظر الكلية الدكتور بيرون منذ تأسيسها في ترجمة قاموس القواميس الطبية لغيرها وهو أضخم وأشمل معجم حضاريٍّ حديثٍ، وتحوي مجلداته الثانية جميع المصطلحات العلمية والفنية في الطب والنبات والحيوان والعلوم الأخرى⁽⁷⁾.

ولم تكن جهود الرؤاد في الكلية السورية الانجليزية (التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية) أقل روعةً. فقد أسهمت إنجازات فان دايك وبُونست وورئات وبطرس البستاني والشدياق واليازجي في إنجاح تدريس العلوم الطبية فيها باللغة العربية بمنهجٍ عصريٍّ ومستوى راقيٍ قرابة ربع قرن⁽⁸⁾.

لكن الحركة أفشلت في مهدتها في كل مركري النهضة وتحول التعليم إلى اللغة الانكليزية. وكان في ذلك التحول بدء الدّوامة التي مازلنا ندور في حلقتها المفرغة دون أن نتمكن من تجاوزها. فما

لم تكن هذه أوفى حظاً من المُعرّبات، ولنا إلى هذا عودة.

ثالثاً: أثناء التجربة الأولى لم يقتصر دورنا على التلقّي السّلبي الإسلامي لأسباب الحضارة، بل كنّا مُشاركين فاعلين فيها ومتّفاعلين إيجابيّن معها. فلقد كان لنا في كل مجال من مجالات الحضارة علماء وباحثون — بل إن ناقل التراث المُجاهِّد في بدء التجربة وخلالها كانوا في كثير من المجالات هُم العلماء أنفسهم.

ثم، ولعله الأهم — على مدى التجربة الأولى لم نكن نعاني تسلط انتداب أو كيد مستعمر. كنّا نحن السادة — سادة أنفسنا وسادة الإمبراطورية وسادة الحضارة العالمية. وما كنّا نضعه لمحكشافاتنا من أسماء عربية أو ما اقتبسناه من مُعرّبات، فرضينا حتى على اللغات العالمية — تشهد بذلك أسماء البروج والكثير من ألفاظ الفلك والكميات والجغرافيا والرياضيات في تلك اللغات.

لكننا جابهنا التجربة الثانية بعيداً مغلوبين على أمرنا، رعايا المحتلين أو المُنتدبين أو المستعمرات، تحكمُ فيها مشيّة المحتل وسياسة المُنتدب ومصلحة المستعمر.

وكيلاً يكون الاحتلال والانتداب والاستعمار عسكرياً واقتصادياً فحسب بل ثقافياً ولغوياً أيضاً، حرصَ الأسياد على زرع الشك والرّيبة في نفوس أبناء الوطن العربي بأهم مقومات أصالتهم وحضارتهم — بلغتهم.

فمنذ انطلاقة عصر النهضة وقبله جابهنا في معظم أرجاء الوطن العربي عداء العثمانيين السافر للغة

1887 — 1827 (6).

(7) حمل هذا القاموس اسم «قاموس الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية» ولم ينشر منه للعموم إلا حوالي مئة صفحة بإشراف الدكتور أحمد عيسى عام 1910.

(8) من 1867 إلى 1890.

بان الشيء : اتضاح، وأبنته أنا : أي أوضحته، والبيان : ما يُبين به الشيء من الدلالة وغيرها. نستخلص من هذا أن الفصيح من الكلام هو السليم الواضح الذي يدرك السمع حسنه والعقل دقتها، والذي تُبيّن بدلاته الأشياء. وفي تعريف «العامي»، لا زيادة في المعاجم العربية على ما يرد في المعجم الوسيط الذي يقول : العامي : المنسوب إلى العامة — والعامة من الناس خلاف الخاصة. والعامي من الكلام : ما نطق به العامة على غير سنن الكلام العربي. بهذه المعاير تعالوا نتساءل : هل اللفظُ الفصيح لغويًا فصيح بالضرورة حضاريًا؟ ولنستعرض بعض الألفاظ في هذا السياق :

الكلمات عربية أصلية	الألفاظ
وفصيحة لغويًا.	تأمورة
فهل هي فصيحة بمعنى أنها كلام يدرك السمع حسنه والعقل دقتها وتبين الأشياء بدلاته؟	و سمسق
أليست لفظة الإبريق للتآمورة	و حيصل
واليسين ⁽⁹⁾ للسمسق	و جاب
للحيصل	و ظاب
والبادنجان ⁽⁹⁾	
وال مجررة	
والعديل	
للطواب (زوج	
أخت الزوجة)	
أوضح وأين أو على الأقل أكثر تبياناً؟	
الألفاظ مصداء وكاشوف وعلم الملك	
ومضعد ومهبط وكهرب	
هي كلمات لا غبار عليها، من حيث الفصاحة اللغوية والمعنى المعجمي أيضاً، للأكسجين	

فيشت معظم جامعاتنا السبعين في الوطن العربي تدرس مواد العلوم بغير العربية. ولعله مما يليق أن تفيد المؤمرة على العربية في الفترة نفسها في كلا المركزين. ويقيني أنه لو استمرت جهودهما لتتضافر مع جهود رجال المعهد الطبي في دمشق منذ 1919 ل كانت تجربة العربية الثانية في مواجهة ألفاظ الحضارة أثبتت مما هي عليه اليوم بكثير.

بين الفصيح والعامي في سياق «الفاظ الحضارة بين الفصيح والعامي» تَحْطُر لي تساؤلات متعددة منها : أ : هل يوجد معيار ثابت يُقاس به مستوى الكلمة ومرتبتها من حيث الفصاحة والعامية؟ ب : هل اللفظ الفصيح لغويًا فصيح بالضرورة حضاريًا؟ وبالتالي هل يمكن للفظ الفصيح لغويًا أن يكون عاميًّا حضاريًّا؟ ج : هل اللفظ العامي لغويًا قاصر حضاريًّا؟ وهل ما يمنع ترقية اللفظ العامي لغويًا ليصبح فصيحاً لغويًا أيضاً؟ ثم د : أين هو موقع الألفاظ الحضارية الدخيلة (أو المُعَرَّبة بنطقها الأعجمي) في هذا الترائب؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات أو بعضها لا بد لنا من تعريف عَمَلَانِي لما تعنيه بلفظتي «عامي» و«فصيح».

الفيلوزبادي في مادة «فصح» يقول : الفصح والفصاحة : البيان وفصح الأعجمي (كرم) : تكلم العربية وفهم عنه. والمُعجم الوسيط يُضيف : رجل فصيح : يُحسِنُ البيان ويُمِيزُ جيد الكلام من ردئه. وكلام فصيح = سليم واضح يدرك السمع حسنه والعقل دقتها، وفي تعريف «البيان» يقول ابن منظور :

(9) «القاموس المحيط» يورد هاتين اللفظتين في شرح «سمسق» و «حيصل» لكنه يهملهما في موقعهما.

أترانا نقول إذا :

علم الظل المائي في جيولوجيا الماء
وعلم الظل الاقتصادي في الجيولوجيا الاقتصادية
وعلم الظل الهندسي في الجيولوجيا الهندسية
وعلم الظل البيئي في جيولوجيا البيئة
ونقول التاريخ الظلكي

ومقياس الزمن الظلكي
وعلم الحيطات الظلكي... الخ
وعلى ما في كل ذلك من شتاتٍ وبعد عن الدقة والوضوح؟ أتركُ الجواب للجيولوجيين !
«مَصْعَد» و «مَهْبِط» لفظتان فصيحتان، وزان مفعّل ومفعّل، لمكاني الصعود والهبوط. وقد كانا فصيحتين حضارياً حين تباهمَا بجمع اللغة العربية مقابل «أنود» و «كاوثُود» أيام كان مفهومُها مقصوراً على التحليل الكهربائي.

لكن بظهور الصمامات الإلكترونية على أنواعها — حيث الكاثود هو مبعث الإلكترونيات — ما عاد من الفصيح ي Baiyā و Dallāl، وبالتالي حضارياً، أن يسمى مبعث الإلكترونيات «مهبطاً». وكان من الفصاحة الحضارية أن عاد بجمع اللغة العربية عن اللفظتين إلى المُعَرَّبتين.

منذ نصف قرن تعلمنا أن النزرة تتالف من ثلاثة أنواع من الجسيمات، سميت ابتدائية، أو أوّيل كا فصحت لاحقاً، مقابل «بروتون» و متعادلة مقابل «نيوترون» و كهرب مُقابل «إلكترون»

فتحقق لنا فيها الفصاحة اللغوية والفصاحة الحضارية. لكن وأنا مدرسٌ منذ حوالي ربع قرن كُنا نعلم أن هذه الجسيمات أكثر من ستة، و كُنت أقرأ في المجالات العلمية أنها سبعة عشر. اليوم يقولون إنها أكثر من سبعة وثلاثين موزعة في أربع عشرة فئة — وهي إلى مزيد.

وهكذا ما عاد الأوّيل أوّيلاً ولا ابتدائية، ولا الكهرب أدّق الجسيمات، ولا المتعادلة فعلاً متعادلة، فضاعت الفصاحة الحضارية، فصاحة الوضوح ودقة

والرادار والجيولوجية. والأنود والكافود والإلكترون لكن هل من وضوح في قولنا :
نقل المريض إلى غرفة المصداء أو يستخدم المستلقان قناع المصداء قبل الوصول إلى قيمة إفرست، أو إن الدم يصدا في الرئتين؟ وهو في الواقع يُوكِسَّج ولا يؤكَسَّد.

وإن قلنا المصداء في الأكسجين الثنائي ذرة الجزيء، فماذا نقول في نظيره الثلاثي الذرات الأكثر إصدائة؟

«كاشوف»، وزان فاعول، فصيحة لغويّاً ولكنها مقابل «رادار» قاصرة، لأن الرادار هو كاشوف محدد بعد راديوسي. والكوashiif اليوم لا تقتصر على الرادار، فهناك :

الليدار الكاشوف ومحدد المدى الضوئي، واللادر الكاشوف ومحدد المدى الليزري، واللوبلار الكاشوف ومحدد المدى الدوبلاري الليزري، والأوندار والسونار وغيرها. وكلها «كاشوفات» لها ميزاتها ووسائلها ودلائلها المختلفة.

ثم إن لفظة رادار وأخواتها تتألف كما هو معلوم من أوائليات أحرف الألفاظ التي عرفت بها تلك المصطلحات — وهي انتقلت إلى مختلف لغات العالم دون النظر إلى الألفاظ التي اشتقت من أوائلياتها أصلاً.

لفظة «كاشوف» أرى أنها على فصاحتها اللغوية قاصرة في الدلالة على مدلولها من حيث دقة التحديد والبيان. وليس علم الظل في هذا المجال بالمعصطلاح الأفضل !

الفيروزآبادي يقول في «الظل» ما يلي :
الظل (محرك) : السنون الجذبة، الواحدة بهاء، كهلكات، وما بين كل أرض إلى التي تحتها إلى الأرض السابعة، وجيفة الشيء الظل و ما بين أعلى الجبل وأسفله وهواء ما بين كل شيئين، والشيء الذي يهوي ويسقط.

الألفاظ «طاقة» و «قدرة» و «وُسْع» و «عَزْم» الفاظ فصيحة. ويمكن للكاتب في موضوعٍ أدنى أن يُعادِل فيما بينها تلافيًا للتكرار أو عملاً بستة التنويع الترادي في الأساليب البلاغية.

لكن هذه الألفاظ اتّخذت في مجالات العِلم وبين أهله مفاهيم متميزة —

فلفظة قُوَّةٌ في غير مقابل force (ما يؤثر في جسم فيغير حالة سُكُونه أو حركته) : عَامِيَّةٌ

ولفظة طاقة في غير مقابل energy (القدرة على القيام بشغل ما) : عَامِيَّةٌ
ولفظة وُسْعٌ في غير مقابل capacity (سعة تخزين) : عَامِيَّةٌ

ولفظة عَزْمٌ في غير مقابل moment (المقدرة على إحداث دوران حول محور...) : عَامِيَّةٌ كذلك فإن لفظة «حشرة» في تعريف حيوان آبُون — كما تردد في معجم نُجله — عَامِيَّةٌ.

ولفظة «انصهار» مقابل fusion في مجال التفاعلات النووية، كما رأيتها مُستخدمَةً في مؤلف فيزيائي يدرس في ثانويات بلد عربي، وكما رأيتها مُستخدمَةً في معجم تقانِي جليل حديث، هي أيضاً لفظة عَامِيَّةٌ حضاريًّا، وإن كانت فصيحة لغويًّا.

وانتقل دون الإفاضة في موضوع العاميات الحضارية إلى تساؤلي الثاني :

هل اللفظ العامي لغويًّا قاصرٌ حضاريًّا؟
منطق علماء التطور اللغوي يُجِيب باللفني.
فلولا أن هذه الألفاظ نجحت في تأدية مفاهيم حضارية محددة تتصل بشؤون الناس اليومية لكانَت ماتت واندثرت — إذ لا ثُراثٌ مكتوبًا يحفظُها.
صاحب «محيط المحيط» له فضلٌ كبير، إضافةً إلى مآثره المتعددة، في أنه أدرجَ في «محطيه»⁽¹⁰⁾ الكثير من الألفاظ العامية أو التي تُستخدم عَامِيَّةً في معنى معين، وقد قلبَ صفحاتِ هذا المعجم على عجل لاختار بعضًا من عَامِيَّاته،وها هي ذي :

الدلالة، وعُدنا نجد أنَّ
بروتون والإلكترون ونيترون
أَفْصَحُ في التعامل مع أجزاء الـذرة الأخرى
كالبيزوون بأنواعه الخمسة
والبيزوترون والطاoron والميبيون والهادرون
والكاونون والنيترونيون... الخ.
العرب يَصَاحِبُهم الفطرة وسليقتهم تَعُودُوا
أن يَنْهَا لفظة من لفظتين أو أكثر — ففتحوا
بسُمْلَ بمعنى : قال بسم الله الرحمن الرحيم أو كتبها
وحوْقُل بمعنى : قال لا حول ولا قوة إلا بالله
وسَبِّع بمعنى : قال سبحان الله
ونَحْثُ المعاصرُون أو ركبوا مَرْجِيًّا
بِرْمَائِيٌّ من بِرِّيٍّ وِمَائِيٌّ
وكهربَائِيٌّ من كهربَائيٍّ وضوئيٌّ
وَحَلْمَهَةٌ من الحل أو التحليل بالماء
واجتمعت لمِثل هذه الألفاظ الفصاحتان :
لكنَّك في مَقِيساتٍ على سُنْتها تَفْتَقدُ فصاحةَ البيان
والدلالة أحياناً. فهل أَفْصَحَ الذين قالوا سابقاً
دمْعَر بمعنى : أَدَمَ الله عَزَّكَ
أو مشكَن بمعنى : مَا شَاءَ اللهُ كَانَ
أو طَلْبَق بمعنى : أَطَالَ اللهُ بِقَاءَكَ...؟
أو الذين قالوا لاحقاً

نَزَّور بمعنى : نَزَّرَ الورق
أو حَرْصِم بمعنى : حَرَرَ من الصُّمَغ
أو زَهْرَج بمعنى : أَزَالَ المدروجين
أو حَلْكَحة بمعنى : الْحَلَّ أو التحليل بالکحول
أو صَلَكَلة بمعنى : استعمال الكلوة؟
أنا مَيَالٌ إلى الإيجابية بالتفقي.
اللفظ الفصيح لغويًّا ليس فصيحاً بالضرورة
حضاريًّا، بل إنه قد يكون حتى عامياً — وفي هذا
السياق أَغْرِضُ بعضاً الأمثلة :

(10) «محيط المحيط» للمعلم بطرس البستاني.

ولا غِرَابَةً في هذه التَّرْقِيَةِ، فهِي مُتَعَارِفَةٌ	بِأَنَّكَةَ
مُعجمِيَاً في كُلِ اللُّغَاتِ. فَمِنَّا ثُالِثُ الْأَلْفَاظِ الَّتِي ظَهَرَتْ	بِرِيمَةَ
في أُولَى طَبَعَاتِ مُعجمِي أَكْسَفُورْدِ الْكَبِيرِ الْبَرِيطَانِيِّ	جَمِيلُونَ
وْبُنِيَّتِ الدُّولِيِّ الْأَمْرِيَّكِيِّ ⁽¹¹⁾ ، وَصُنِّفَتْ عَامِيَّاتٍ،	حَوْشَ
أَرْتَقَتْ إِلَى رُتبَةِ الْفِصَاحَةِ في طَبَعَاتٍ تَالِيَّةٍ.	خَابُورَ
وَلَعِلَّ مِنَ الْمُنَاسِبِ في هَذَا السَّيَّاقِ، سِيَاقِ	خَوْشَ
الْعَامِيِّ الْفَصِيحِ، إِبْرَادُ نَصْ وَرَدَ في كِتَابِ «مُشَكِّلَاتِ	الْمُسْمَارِ الْخَشْبِ
الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ» لِلْأَسْتَاذِ حَمْمُودِ تِيمُورَ. يَقُولُ الْأَسْتَاذُ	عُمَقُ التَّقْبَ لِيَتَسَطَّعَ رَأْسُ
تِيمُورُ مَا فَحَوَاهُ :	الْمُسْمَارِ مَعَ السَّطْحِ
الشَّعْبُ يَقُولُ : عَوَامَةَ	دَبْشَ
فِي عَائِمَةِ	دَلْفَ
وَسَوَاقَ	رَصِيدَ
فِي سَائِقَ	زَرْدِيَّةَ
وَمِرْسَالَ	بِعْنَى (هَذَا الْمَعْنَى)
وَيَقُولُونَ : حَوْشَ الْمَالِ	سَبْلَكَ
وَمَلَحَ ذِرَاعَهُ	شَتْلَةَ
وَسَبَبَ الدَّوَابَ	صَاجَ
وَبَرْطَلُ الْمُرْتَشِيِّ	صُوبَةَ
وَشَوَّرُ لِزَمِيلِهِ	قَرْفَ
وَيَقُولُونَ :	كَسْمَ
خِلْقَةُ الشَّخْصِ بِعْنَى طَبَعِهِ	مَخْصَلَةَ
صِيَغَةُ الْمَرْأَةِ بِعْنَى حُلْيَّهَا	مَكْوُكَ
وَقَبْصَةُ مِلْعِ بِعْنَى نُفَفَةُ مِنْهُ بَيْنِ	وَرْشَةَ
إِصْبَاعَيْنِ	وَشِيعَةَ الْأَلَةِ الْحَيَاةِ
وَفُمُّ الْغَسِيلِ بِعْنَى إِحْدَى مَرَّاتِهِ	وَكُلُّهَا مِمَّا لَا يُعَوِّزُهُ الْبَيَانُ وَلَا الْمَفْهومِيَّةُ وَلَا دَقَّةُ
فَيَأْتِيَ الْكُثُرَةُ مِنْ حَمَلَةِ الْأَقْلَامِ يُفَصِّحُونَهَا بِمَا	الْدَّلَالَةِ. فَهَلْ مَا يَمْنَعُ تَرْقِيَةَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ لِعُوَيْنِيَّةِ لِتُضَعِّفَ
لَا يَمْتَازُ عَنْهَا فَصَاحَةً — فَمَا أَحْرَانَا أَنْ تُفْتَحَ الْبَابُ	فَصِيقَةَ لِعُوَيْنِيَّةِ أَيْضًا؟
عَلَى مِصْرَاعِيهِ لِمَثْلِ هَذِهِ التَّعَابِيرِ شَرِيكِ الْفَصِيحِ	الْمَعْجُمُ الْوَسِيْطُ كَانَ صَرِيْحًا فِي إِجَابَتِهِ حِينَ
وَتُكَسِّبُهَا مَرِيدًا مِنَ الدَّقَّةِ وَالْتَّعْبِيرِ. لَقَدْ جَنَّثَ عَلَى مِثْلِ	أَوْرَدَ غَالِبَيَّةَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ دُونَ أَنْ يُصَنَّفَهَا عَامِيَّةً.
هَذِهِ الْكَلِمَاتِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْأَلْفَاظِ الْعَامِيَّةِ لِاقْتِصَارِ	
اسْتِعْمَالِهَا عَلَى أَلْسُنَةِ الْعَوَامِ، وَالْخَصَاصِيَّةِ بِلِغَةِ	
التَّخَاطُبِ وَالْحَدِيثِ. فَلَتَعْرِفَ لِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ حَقَّهَا فِي	

(11) من الألفاظ التي كانت عامية وارتقت إلى الفصاح في هذا المعجم :

banter يعني بِرِيمَةٍ و sham يعني صُورِيٍّ و mob يعني غوغاءٍ و finalize يعني بِنَا ظلت في رتبة العاميات ألفاظ مثل duds يعني ملابسٍ و dubes يعني قبضة اليد.

العربية ولتجدر بها أقلام الكِرام الكاتبين دون تحرُّز
ولنسَمَّها العامية الفُصحي⁽¹²⁾ !

وأخيراً آتي إلى تساؤلي الثالث حول موقع
الألفاظ الحضارية الدُّخيلة بين الفُصحي والعامية.
وهي احتلَّت سابقاً وتحتلُ حالياً وستحتلُ مستقبلاً
حَيْزاً مَرْموقاً في دُنيا ألفاظ الحضارة في اللغة العربية.
هذا الواقع لا أراه مُختلفاً نوعاً، وإن اختلف
كَمَا، عن واقع الألفاظ الحضارية في مُجا بهتنا
الحضارية الأولى.

فالألفاظ التي اهتممتها العربية قبل وبعد
صدر الإسلام، حتَّى لكانها غير دُخيلة، مثل :
أستاذ وبخور وبيلور وثافت
ودواة وسد وسيف وصبا
وصبراط وفيلة وفرن وقفص
وكرسى وكوفية وناظور
وهان وبيم

اعتبرت فصيحة حضارياً وفصيحة لغويًا.
حتى تلك الدُّخيلات التي ظلت مَسْنَحةً

العجمة بِيَنَّةً فيها مثل :

إبريسم واستبرق وإقليم
وديماج ودرفس وزنجيل
وفار ومُصنطكي وياسمين

شفع لها حضورها التراثي أو الأدبي أو
الحياتي الحضاري بين الناس، فلم يعترض أحد على
فضاحتها.

أما الدُّخيلات الحضارية التي استُخدِمت في
نُطق مَحدودة مثل :

وأنولوطيقا
وهيولي في الفلسفة.
وبطريون وبوريطس
أو أشق وجمشت وخلقيدون ودهنج
وزهنج وزرلون ومرقشيتا في الكيمياء.
أو أورطي وبريطون وبنقراس
وقرنية وقولون ومساريقي في الطب.
أو إطريفيل وبربوف وبوفيضا وجنجيل
وشقاقل وطرخشقون وفريبيون في النبات.
أو إسكندور وبطليوس ودلفين وسفنج
وطرسنج وقبعون ووشق في الحيوان.

فقد ظلت فوق التصنيف الفصحي،
محصورة في دفاتر الفلاسفة والكماويين وعلماء
النبات والحيوان وحَلَقاتِهم. وكونها خارج صُلب
اللغة فإنها لم تُضِرْها بل أثرتها وفتحت مجالاتها
واسعة أمام العلم وأهله من ذوي الاختصاص.

ونحن اليوم أمام موقف مُماثل في مُجا بهة
الألفاظ الحضارية الدُّخيلة.

فالتعريفُ أمرٌ واقعٌ لا خيارٌ لنا فيه أمام أسماءِ
المُركبات الكيماوية وأسماء العقاقير التي تتجاوز
المليون، وفي مُجا بهة أسماء النباتات والحيوانات
وفصائلها وطوائفها وأنواعها وأفرادها التي تتجاوزُ
المليونين، وفي معالجة المُسميات الهندسية
والإلكترونية التي تقاربُ هذا العدد أيضاً، وكلها
مُستمرة في التدفق على العالم الحضاري، الذي تُريدُ
مواكبته، دون انقطاع.

إنَّ الذين يقفون في وجه التعريف في نطاق
هذه المُجا بهة يُغالطون أنفسهم ويُغالطون الواقع.

(12) اكتشفت لاحقاً أن هذا الفصل من الكتاب وارد بعنوان «العامية... الفصحي» في العدد الثالث عشر من مجلة المجمع.

بُلْطَة جُمْرَك سِقَالَة
غَاز طَاوِلَة قَفْرَة
وَهُنَالِكَ الْفَاظُ فَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَى شَؤُونَ
حَيَاتِنَا الْحَضَارِيَّةِ فَلَا يُمْكِنُنَا تَجَاهِلُهَا — وَبِالْتَالِي فَلَا
يَجُوزُ لِلْغُتْنَا، مِرَأَة حَيَاتِنَا، تَجَاهِلُهَا أَيْضًا. مِنْ هَذِهِ
الدِخِيلَاتِ مَثَلًا :

أُورُوم	أُوتُومَاتِي	أَمْبِير
يَسْتَرَّة	بَالِيه	بَارِوْمِتَر
تِرْمُوْسَتَات	تِرْمَانِيزِسْتُور	بَطَارِيَّة
رَادَار	جِيُولُوْجِيَّة	تِلْفِزِيون
كِيلُومِتر	كَلُورَة	رَادِيو
هُورْمُونُ الْغُ	نِتَرَات	لَيْزَر

وَقَدْ تَحْتَلِفُ فِي حَجْمِ هَذَا الْعَدْدِ مِنِ الدِخِيلَاتِ، وَلَكِنَّهُ حَتَّمًا لَا يَتَجَاهِزُ بِضَعَةَ آلَافٍ.
هَذَا الْعَدْدُ مِنِ الدِخِيلَاتِ الْحَضَارِيَّةِ إِنْ تَحْتَلِفُ
بِقِبَلَتِنَا الْيَوْمَ، فَإِنَّ بَابَ اسْتِبْدَالِهِ يَقْبَلُ مَفْتوحًا — تَامًا
كَاسْتِبْدَلِ الْأَقْدَمُونَ:

كَمَا إِنَّ الْمَوْقَفَ الْمُتَشَدِّدَ الْمُتَحَرَّصَ ضِدَّ التَوْسُعِ
فِي التَّعْرِيبِ الَّذِي فَرَضَتْهُ الْجَامِعُ مِنْذَ جِيلٍ أَوْ
جِيلَيْنِ⁽¹³⁾ نَجَدَهُ الْيَوْمَ يَلِينُ أَمَامَ حَقَائِقِ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ.
تَشَهَّدُ بِذَلِكَ تَصْرِيْحَاتُ سِيَادَةِ شِيخِنَا رَئِيسِ الْجَمِيعِ
الدُّكْتُورِ إِبْرَاهِيمِ مَدْكُورِ⁽¹⁴⁾ وَسِيَادَةِ رَئِيسِ مَجْمِعِ
الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَرْدَنِيِّ زَمِيلَنَا الدُّكْتُورِ عَبْدِ الْكَرِيمِ
خَلِيفَةِ⁽¹⁵⁾ أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءَهُمَا وَحْضُورِ الْمُناضِلِ
اللُّغَوِيِّ الْفَذِّ الْمَغْفُورُ لِهِ الْأَسْتَاذُ عَبَّاسُ
حَسَنِ⁽¹⁶⁾ وَكُلُّهَا تَقُولُ بِإِفْسَاحِ الْمَحَالِ لِلتَّعْرِيبِ فِي
هَذِهِ الْحَالَاتِ دُونَ عَائِقٍ أَوْ اشْتِرَاطٍ.
وَفِي تَعَالَمِنَا مَعَ الْأَلْفَاظِ الْدِخِيلَةِ فِي عَصْرِنَا
الْحَاضِرِ أَرَى أَنَّ نَفِيدَ مِنْ خَبْرَةِ الْأَسْلَافِ فِي هَذَا
الْمَحَالِ.

فَهُنَاكَ الْأَلْفَاظُ الْدِخِيلَةُ اسْتَقَرَّتْ فِي الْلُّغَةِ أَوْ
كَادَتْ وَلَا مُبِرَّ لِأَنَّ تَجَاهِلَهَا مَعَاجِنَا الْلُّغَوِيَّةِ
الْيَوْمَ — مَثَلًا :

بَارُود بَالَّة بُرْغَى

(13) مِنْ حَوْلِي نَصْفَ قَرْنِ أَصْدَرَ بَعْضُ الْأَعْجَمِيَّةِ، عَنْ
الْفَيْرُورَةِ، عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي تَعْرِيبِهِمْ.

وَقَدْ شَرَحَ الشِّيْخُ أَحْمَدُ الْاِسْكَنْدَرِيُّ هَذَا الْقَرْأَرُ الْمُتَحَرَّصُ بِاسْمِ الْجَمِيعِ فَقَالَ «الْمَرَادُ بِالْعَرَبِ — فِي الْقَرْأَرِ — الْعَرَبُ الَّذِينَ يَوْثِقُ بِعَرِيبِهِمْ
وَيَسْتَشَهِدُ بِكَلَامِهِمْ، وَهُمْ عَرَبُ الْأَمْصَارِ إِلَى نَهَايَةِ الْقَرْنِ الْمُهْجَرِيِّ الثَّانِي وَأَهْلِ الْبَدْوِ إِلَى أَوْسَطِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ».

مَجْمِعُ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، صِ 206، جِزَءٌ 11.

(14) يَقُولُ سِيَادَتَهُ مَا فَحْوا : «وَلِلْعَالَمِ كَامِلُ الْحَرْبِيَّةِ فِي اخْتِيَارِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعُلْمَيَّةِ فِي سَعْدَتِهِ مِنَ النَّصْحِيِّ أَوْ مِنَ
الْعَامِيِّ، وَيَسْتَعِنُ عَلَيْهِ بِالْلُّغَاتِ الْحَيَّةِ أَوِ الْمَيَّةِ. وَقَدْ يَشَكُّو مِنْ قَصْوَرِ الْلُّغَةِ وَعَجَرُهَا عَنْ أَدَاءِ مَا يَرِيدُ فَلِيَجُأُ إِلَى وَسَائِلٍ أُخْرَى مِنْهَا التَّعْرِيبِ.
وَقَدْ رَسَمَ الْجَمِيعُ لِلتَّعْرِيبِ ضَوَاطِيْنَ تَنْظِيمِهِ، فَيُعرِبُ خَاصَّةً مَا يَدْلِلُ عَلَى أَسْمَاءِ الْأَعْيَانِ وَأَعْلَامِ الْجِنْسِ (كَالْأَكْسِجِينِ وَالْأَنْزِيمِ وَالْأَيُونِ
وَالْأَلْكْتُرُونِ) وَمَا يَدْلِلُ عَلَى تَصْنِيفِ عَامٍ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ فِي النَّبَاتِ وَالْحَيَّانِ وَسَلْسَلَةِ الْمَوَادِ الْمُتَشَابِهِ كَيْمَاوِيَاً وَمَا يَنْسَبُ
إِلَى عِلْمٍ أَوْ شَخْصٍ أَوْ اسْمٍ مَكَانِ».

مَجْمِعُ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، صِ 7 وَ 10، جِزَءٌ 18. وَفِي مَكَانٍ آخَرَ يَقُولُ سِيَادَتَهُ :

الْعِلْمُ هُوَ تِرَاثُ الْأَنْسَانِيَّةِ جَمِيعًا، يَجِبُ أَنْ يُفْسَحَ مَجَالُ التَّبَادُلِ فِيهِ، وَأَنْ يُتَسْرِّرُ سُبُّلُهُ، وَمِنْ وَسَائِلِ التَّيْسِيرِ أَنْ يُسْتَمَعَ بِتَبَادُلِ الْأَلْفَاظِ
كَمَا تُبَادِلُ الْأَفْكَارُ وَالْمَعْانِي». مَجْمِعُ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، صِ 148، جِزَءٌ 11.

(15) يَقُولُ سِيَادَتَهُ : «إِنَّ التَّحْفَظَاتِ وَالتَّحْدِيدَاتِ وَالْمَنَاقِشَاتِ الْمَطْوَلَةِ حَوْلَ التَّعْرِيبِ الْلُّغَوِيِّ لَا مُبِرَّ لَهَا — وَأَصْحَابُ هَذِهِ الْاعْتَرَاضَاتِ
يَسْهُمُونَ مِنْ حِيثِ لَا يَدْرُونَ فِي حَمْلَةِ الْمُعَادِنِ لِلْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ».

عَبْدُ الْكَرِيمِ الْخَلِيفَةِ، «الْلُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَالتَّعْرِيبُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ» عَمَانُ 1987.

(16) فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى مَوْضِيِّ التَّعْرِيبِ يَقُولُ الْأَسْتَاذُ عَبَّاسُ حَسَنُ :

«إِنَّ التَّرَامَ قَدْ كَادَ عَهْدَهُ يَنْقُضُ قَبْلَ أَنْ يَضْعِفَ الْجَمِيعُ لِأَجْزَائِهِ أَسْمَاءً، وَقَدْ تَنَقَّضَ السِّيَارَةُ قَبْلَ أَنْ تَعْرَفَ أَسْمَاءَ أَجْزَائِهَا الرَّئِيْسِيَّةِ.
وَإِنِّي لَأَرَى أَلَا تَنْقُضَ أَمَامَ الْخَتْرَعَاتِ الْحَدِيثَةِ وَنَكْلَفَ الْجَمِيعُ وَضَعُ الْأَلْفَاظِ عَرَبِيَّةً هَذِهِ — فَإِنَّا حِيشَنِدُ نَكْلَفَ أَعْضَاءَهُ عَسْرًا. فَإِنَّا لَا أَرَى
دَاعِيَا لِهَذِهِ التَّرْزُّتِ مِنْ ضَرُورَةِ اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ عَرَبِيَّةً. إِنَّ بَعْضَ الْمَصْطَلَحَاتِ قَدْ تَغْيِيرَ قَبْلَ أَنْ نَصْطَلِحَ هَذِهِ عَلَى أَسْمَاءِ عَرَبِيَّةٍ.
مَجْمِعُ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، صِ 155، جِزَءٌ 11.

ومساقات المتخصصين — ولا خوف على اللغة منها لأنها لن تدخل صلب اللغة ولا معاجمها. والبرهان أن ما تورده أوسع المعاجم اللغوية العالمية من ملايين هذه الألفاظ لا يتجاوز بضعة عشرات الآلاف كما في معجم ويستر الدولي الثالث غير المختصر.

اللُّفْظُ الحضاري من حيث إنه واضح الدلالة ودقيق التعبير في مجال اختصاصه يُؤلَفُ رُتبة مُتميزة تتجاوز الفصيح أو العامي بالمفهوم التقليدي.

والألفاظ الحضارية الدخيلة — السابق منها الذي هضمنته العربية، واللاحق، الذي تقبله اللغة باستخدام والشيوخ والغرابة السليقية، هي جزءٌ مهمٌ من اللغة يُتعشّشُها ويُثريها، كما إن مُلحّقها المُعرّب ينطّقه لاستخدام العلماء يَجْعَلُها قادرةً على استيعاب العلوم المُتَطَوّرة الحديثة ويُقرّبُها إلى لغة العلم العالمية، ويُسُدُّ الطريق على مُعرقي مَسِيرَة تعريف التعليم في مختلف مراحله.

لأنّا مهما أغنّينا لغتنا بالألفاظ الحضارية كما وكيفاً، فإنّه لا يتجاوز كُونَه غَنِيًّا في طول اللغة وعَرْضِها — يعني غَنِيًّا سطحيّاً.

والغنى الصحيح، الغنى العميق، لا يتأتّى إلا حين تُصبحُ العربية لُغة المتعلم والعالم، وإنّا باستثنيات العلم يبيّناً عندنا — لتُصبحُ اللغة العربية لُغة التعليم في كافة مراحله فقط، بل أيضاً لُغة البحث العلمي والتأليف العلمي والإبداع العلمي، وهذا بحث يطُول وأمْلِيُّه يُرجّى، والله المُوفّق.

الحساب بالأرتقاطيقا
وعلم الفلك بالأسترونوميا
والمهندسة بالجيومطري
والبلاغة (أو الخطابة) بالريتوريكا
وكا وُفق الرُّواد في العصر الحاضر باستبدال
بوسطة ب بريد
وتكتسين⁽¹⁷⁾ ب ذيفان
وسّارة ب أوتوموبيل
وشاحنة ب كميون
وشرطة ب بوليس
وصفاق ب بريتون
وقرق الدم ب أنيما
وفندق ب أوتيل... وغيرها كثیر،
حتّى وإن ظلت الدخيلة ثنافسًّا ما يتّحدنا به
الغوّاصون من الدُّرّر التي تستبدلها بها، في مثل :
بنك ومصْرِف
تلفون وهاتف
توربين وعَنْفة
زُبُرُوك ونابض
كليشييه وروسم
مِيكروسكوب ومجهر
مِيكروب وجُرثومة
أما الدخيلات البعيدة عن شؤون الحياة اليومية والغريبة إلا عن استخدام ذوي الاختصاص العالي فإنّها ستبقى ألفاظاً حضارية ضيّن مُخابر العلماء

(17) كان ابن سينا قد عَرَبَها «طُحشين».

المراجع

- أبو سعد، أحمد «قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية» مكتبة لبنان، بيروت 1987.
 - البيستاني، بطرس «محيط المحيط» مكتبة لبنان، 1977.
 - بنعبد الله، عبد العزيز «نحو تفصيح العامية» الرباط، 1972.
 - تيمور، محمود «مشكلات اللغة العربية»، القاهرة.
 - خليفة، عبد الكريم «اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث» عمان 1987.
 - السيد، داود حلمي «المعجم الانكليزي بين الماضي والحاضر»، جامعة الكويت، 1978.
 - شرف، محمد «معجم العلوم الطبية والطبيعية» القاهرة، 1928.
 - الشيال، جمال الدين «تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية»، دار الفكر العربي، القاهرة 1950.
 - عطيه، رشيد «الدليل إلى مرادف العامي والدخيل».
 - غالب، إدوار «الموسوعة في علوم الطبيعة»، المكتبة الشرقية، بيروت 1988.
 - مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الأجزاء 11، 12، 18.
 - مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المُزدوج 23 – 24.
 - مجمع اللغة العربية، «المعجم الوسيط»، الطبعة الثالثة، القاهرة.
- The Barnhart Dictionary of New English 1963 - 1972.
C.L. Barnhart Inc. New York, 1973.
 - The Second Barnhart Dictionary of New English,
Barnhart Books New York, 1980.
 - The Longman Register of New Words, Longman, London 1989.
 - Webster's Third New International Dictionary - Unabridged G and C Merriam Co. Springfield 1976.